"بيتر بلاو" ومدى إسهامه في تطور نظرية التبادل الاجتماعي

طلعت إبراهيم لطفي*

* حصل على الدكتوراه في علم الاجتماع من جامعة عين شمس عام ١٩٧٨م.
يعمل أستاذاً مساعداً بقسم الاجتماع بجامعة القاهرة ــ فرع بني سويف.

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة التعرف على المنظور الذي قدمه «بيتربلاو» عن «البنائية التبادلية» ومدى إسهام هذا المنظور في تطور نظرية التبادل الاجتماعي. وترجع أهمية «بلاو» إلى أنه قد حاول - في مؤلفه بعنوان (التبادل والقوة في الحياة الاجتماعية) - إضافة بعض المبادىء الاقتصادية إلى وجهة النظر الاجتماعية التبادلية.

ويختلف المنظور الذي قدمه «بلاو» عن بعض المنظورات الأخرى التي قدمها أصحاب نظرية التبادل، الذين اهتموا بالجوانب الفردية النفسية. أما «بلاو» فقد اهتم بالتبادل الاجتماعي على مستوى البناء الاجتماعي، والتعرف على أثر التبادلات في ظهور النظام الاجتماعي العام، والشرعية، والمعارضة، والتمايز في المكانات والقوة داخل المجتمع. وقد حاول «بلاو» في هذا المنظور الاستفادة من المفهومات والافتراضات المختلفة التي وردت في بعض الاتجاهات النظرية مثل الوظيفية، ونظريات الصراع، والتفاعلية الرمزية، مما يشير إلى أنه قد حاول سد الثغرات الموجودة بين التحليل السوسيولوجي على مستوى الوحدات الكبرى والتحليل على مستوى الوحدات الصغرى.

ومن أوجه النقد التي تعرض لها هذا المنظور الذي قدمه «بلاو» أنه جعل التبادل محوراً للسلوك الاجتماعي في جميع المواقف، وأنه يتعين حساب العلاقات الاجتماعية في ضوء متغيرات اقتصادية خالصة، كما يؤخذ على هذا المنظور أنه لازال في حاجة إلى تأييد البحوث الإمبيريقية لقضاياه النظرية، خاصة وأنه لم يقدم صياغة نظرية مقنعة تماما تناسب جميع المجتمعات، نظراً لأن صياغته تعكس طابع الحياة والثقافة الأمريكية التي تتسم بازدياد النزعة الفردية، والمنافسة، والسعي من أجل الربح، لذلك يجب الحذر عند استخدام هذا المنظور في مجتمعنا العربي الذي يختلف واقعه عن واقع المجتمع الأمريكي الذي نشأ فيه هذا المنظور.

مقدمة

شهدت الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية ابتداءً من ستينيات القرن العشرين اتجاها متزايدا بين المتخصصين في علم الاجتماع وخاصة الشباب منهم نحو نقد وإعادة تقييم نظريات علم الاجتماع السائدة وخاصة النظرية الوظيفية وما تضمنته من مسلمات وما تحتوي عليه من مضمون أيديولوجي وما تشير إليه من إجراءات عملية تطبيقية(١).

ونتيجة لحركة التجديد والنقد في علم الاجتماع الغربي، اتجه بعض العلماء نحو صياغة مجموعة من البدائل النظرية التي اعتقدوا أنها يمكن أن تحل محل النظريات التقليدية في المجتمعات الغربية، خاصة النظرية الوظيفية عند «بارسونز» T.Parsons (زايد، ١٩٨١: ٤١١). وقد كان ظهور هذه البدائل النظرية بمثابة أحد الدلائل على مايطلق عليه «جولدنر» A.Gouldner بالأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي(٢).

وتهدف هذه الدراسة إلى محاولة التعرف على ملامح إحدى البدائل النظرية الحديثة التي ظهرت في علم الاجتماع الغربي، وهي نظرية التبادل الاجتماعي Social Exchange Theory والتعرف على ملامح أحد المنظورات التي تتضمنها هذه النظرية، وهو منظور «بيتربلاو» عن التبادل في الحياة الاجتماعية، وهو ما يطلق عليه (البنائية التبادلية) Exchange Structuralism، مع محاولة تقييم هذا المنظور في ضوء بعض أسس التقييم الموضوعية.

ويرجع اهتمام الباحث بدراسة نظرية التبادل الاجتماعي إلى أن هذه النظرية الحديثة لازالت غامضة، حيث إنها لازالت في طور التكوين والتطوير. بالإضافة إلى رغبة الباحث في متابعة أحد البدائل النظرية أو أحد التيارات الجديدة التي ظهرت في داخل علم الاجتماع الغربي نفسه، وحاولت هدم الاتجاهات التقليدية أو تغييرها أو على الأقل قد شككت في بعض مفاهيمها وقضاياها النظرية.

كما يرجع اهتمام الباحث بالتركيز على مدى إسهام «بيتربلاو» في تطور نظرية التبادل الاجتماعي، إلى أنه يُعد من بين أهم العلماء الذين قدموا مؤخراً إسهامات ملفتة في مجال بناء نظرية علم الاجتماع(٣). فقد حاول «بلاو» صياغة

منظور سوسيولوجي يختلف عن غيره من المنظورات الأخرى التي تتضمنها نظرية التبادل الاجتماعي، من حيث اهتمامه بالتبادل الاجتماعي على مستوى البناء الاجتماعي، دون الاهتمام فقط بالجوانب الفردية النفسية على النحو الذي قام به غيره من العلماء من أصحاب نظرية التبادل الاجتماعي أمثال «هومانز» G.Homans و«ثيبوت» J.Thibaut و«كيلي» H.Kelley. بالإضافة إلى أن المنظور الجديد الذي قدمه «بلاو» يُعد محاولة لإحداث التكامل بين عدة اتجاهات نظرية في منظور سوسيولوجي واحد، يجمع بين التحليل على مستوى الوحدات الكبرى والتحليل على مستوى الوحدات الصغرى(٤).

ويمكن تحديد أهداف هذه الدراسة في أربعة تساؤلات رئيسية على النحو التالي:

أولاً: ما أهم الملامح الأساسية لنظرية التبادل الاجتماعي بوجه عام، وكيف تفسر هذه النظرية طبيعة كل من الإنسان والمجتمع، وكيفية أداء المجتمع لوظائفه؟

ثانياً: ما هو المنظور الذي قدمه «بيتربلاو» عن التبادل في الحياة الاجتماعية وما مدى كفاءة وقدرة هذا المنظور على فهم الجوانب المختلفة للواقع الاجتماعي؟

ثالثاً: ما مدى الالتقاء أو التقارب بين المنظور الذي قدمه «بلاو» وبين غيره من الاتجاهات النظرية الأخرى في علم الاجتماع؟

رابعاً: كيف يمكن تقييم المنظور الذي قدمه «بلاو» في ضوء بعض أسس تقييم النظرية، وما أهم أوجه النقد التي تعرض لها هذا المنظور؟

وسيحاول الباحث فيما يلي الإجابة على كل من هذه التساؤلات السالفة الذكر.

أولاً: الملامح الأساسية لنظرية التبادل الاجتماعي

وفي هذا الصدد، سيحاول الباحث توضيح أسباب نشأة نظرية التبادل الاجتماعي، والسياق المجتمعي والعلمي لنشأتها وأهم منطلقاتها الفكرية، وأهم مفهوماتها، وقضاياها النظرية الأساسية، بهدف التعرف - فيما بعد - على مدى الإسهام الذي قدمه «بلاو» في تطور هذه النظرية.

والواقع أن نظرية التبادل الاجتماعي تُعد إحدى النظريات السوسيولوجية المعاصرة التي ظهرت كإحدى البدائل النظرية في علم الاجتماع الغربي. وترجع الجذور الفكرية لهذه النظرية إلى آراء بعض الفلاسفة والعلماء الذين اهتموا بعملية التبادل (الأخذ والعطاء)Reciprocity منذ القدم. فقد شغلت هذه العملية اهتمام بعض فلاسفة اليونان من أمثال أرسطو، والفيلسوف الأخلاقي «آدم فيرجسون» Adam Ferguson و«آدم سميث» Adam Smith في القرن الثامن عشر.

كما تأثرت نظرية التبادل في نشأتها بثلاثة مصادر هامة، هي: الاقتصاد الكلاسيكي، والأنثروبولوجيا الوظيفية، وعلم النفس السلوكي(٥).

وقد استفادت نظرية التبادل الاجتماعي من آراء بعض أصحاب الاقتصاد الكلاسيكي النفعي من أمثال «دافيدريكاردو» David Ricordo و«جون ستيوارت ميل» J.S.Mill و«بنتام» Jermy Bentham. إلا أن مفهوم التبادل في الاقتصاد الكلاسيكي يشير إلى التبادل المادي فقط، بينما ينظر أصحاب نظرية التبادل الاجتماعي إلى مفهوم التبادل على أنه يعني كلاً من التبادل المادي والتبادل الرمزي غير المادي.

ونجد أن الأنثروبولوجيا الوظيفية قد أثرت أيضا في نشأة نظرية التبادل الاجتماعي. إذ تأثرت هذه النظرية ببعض الدراسات الأنثروبولوجية التي أجريت في بعض المجتمعات البدائية، والتي قام بها بعض علماء الأنثروبولوجيا الوظيفية من أمثال «سير جيمس فريزر» Sir James Frazer و«برونيسلومالينوفسكي» Bronislaw Malinowski و«مارسيل موس» Marcel Maus و«كلاودليفي ستراوس» Claud L'evi Straus.

ومن جهة أخرى، نجد أن نظرية التبادل الاجتماعي قد تأثرت بآراء بعض علماء النفس السلوكيين من أمثال «سكينر» B.F.Skinner الذي نشر بعض الدراسات عن السلوك الاجتماعي في كتابه عن (سلوك الكائنات العضوية) The Behavior of Organism، والتي كان لها تأثير كبير في نشأة نظرية التبادل الاجتماعي.

وقد أسهم في تطور نظرية التبادل الاجتماعي حالياً بعض علماء الاجتماع

المعاصرين أمثال «ثيبوت» J.Thibaut و«كيلي» H.Kelley[٦]. كما اهتم بعض العلماء من أمثال «جورج زيمل» George Simmel و«تشارلز كولي» Charles H.Cooley بدراسة عملية التبادل في العلاقات الاجتماعية بين الأفراد خلال تفاعلهم مع بعضهم البعض. إلا أن هؤلاء العلماء لم يتمكنوا من تطوير نظرية منظمة عن التبادل في الحياة الاجتماعية[٧].

ويذكر «تيرنر» J.H. Turner[٨] أنه على الرغم من أن الجذور الفكرية لنظرية التبادل الاجتماعي ترجع إلى اهتمام الفلاسفة والعلماء منذ القدم، كما ترجع إلى ثلاثة مصادر هامة هي: الاقتصاد الكلاسيكي، والأنثروبولوجيا الوظيفية، وعلم النفس السلوكي، بالإضافة إلى إسهام بعض علماء الاجتماع المعاصرين من أمثال «ثيبوت» و«كيلي»، و«زيمل». إلا أن هذه النظرية يمثلها حاليا كل من «جورج هومانز» George C.Homans و«بيتربلاو» Peter M.Blau. ويسمى الاتجاه الأول (السلوكية التبادلية) Exchange Behaviorism، بينما يسمى الاتجاه الثاني (البنائية التبادلية) Exchange Structuralism مما يشير إلى أن نظرية التبادل الاجتماعي تتضمن عدة منظورات مختلفة.

وقد كان لجهود كل من «هومانز» و«بلاو» الفضل في ظهور نظرية التبادل الاجتماعي، كإحدى البدائل النظرية المطروحة في علم الاجتماع الغربي. ونجد أن «هومانز» G.C.homans[٩] قدم في كتابه عن (السلوك الاجتماعي) Social Behavior بعض الافتراضات النظرية التي يعتبرها بمثابة أسس للسلوك الاجتماعي. وقد ذهب في تحليله لهذا السلوك إلى أنه كلما كانت نتيجة الفعل ذات قيمة بالنسبة للفرد، زادت احتمالات أدائه لهذا الفعل. ولم يقدم «هومانز» مثل هذه الافتراضات على أنها حقائق تم إثباتها، وإنما يطرحها كقضايا جديرة بالدراسة عن طريق البحوث الإمبيريقية[١٠].

ونجد أن نظرية التبادل الاجتماعي تتضمن بعض المفهومات Concepts الأساسية التي تشكل العناصر الرئيسية في هذه النظرية. ويحدد «ريتشارد أميرسون» Richard Emerson[١١] بعض هذه المفهومات الأساسية التي تستخدم في نظرية التبادل الاجتماعي والتي تعبر عن أهم القضايا التي تثيرها هذه النظرية. ومن أهم

هذه المفهومات: مفهوم الفاعل actor، وعلاقة التبادل exchange relation، والقيمة Value، والمكافأة reward، والبدائل altenatives، والتكلفة cost، والاعتماد dependence، والتوازن balance، والقوة power، والفوائد benefits، والموارد أو المصادر Resources[١٢]. وتتضمن نظرية التبادل الاجتماعي بعض القضايا أو الافتراضات الأساسية حول طبيعة الإنسان، وطبيعة المجتمع وكيفية أدائه لوظائفه.

ومن حيث طبيعة الإنسان، ترى هذه النظرية أن الإنسان يتصرف بشكل منطقي وعقلاني، فكل إنسان يضع أمامه مجموعة من الأهداف ويحدد لنفسه أكثر الوسائل كفاءة لبلوغ هذه الأهداف. ويضع الإنسان غيره من أعضاء المجتمع في اعتباره أثناء سعيه لتحقيق أهدافه، حيث إن هؤلاء الأعضاء يؤثرون أو حتى يتحكمون في عملية سعي الإنسان لتحقيق أهدافه. وهذا الموقف هو الذي ينتج العلاقة الأساسية للتبادل. ويصبح السلوك بهذا المعنى سلوكاً اجتماعياً. كما يتخذ السلوك شكل التبادل، حيث إن أعضاء المجتمع أو الأشخاص الآخرين الموجودين في الوسط الاجتماعي يملكون المصادر أو الموارد المختلفة. ومن ثم فإننا نتبادل النقود بالسلع، والعمل بالنقود، كما نتبادل المشاعر والعواطف. ويجد الناس أنفسهم دائماً في مواقف اجتماعية تبادلية، حيث يتبادلون السلوك والخدمات، ويتبادلون الدعم العاطفي والانفعالي.

وفيما يتعلق برؤية نظرية التبادل الاجتماعي لطبيعة المجتمع وكيفية أدائه لوظائفه، فيرى أصحاب هذه النظرية أن الحقيقة يجب أن نبحث عنها في (الفرد) وليس في (المجتمع). فالمجتمع ماهو في نهاية الأمر إلا أسلوب مجموعة الأفراد ومجموعة التبادلات التي تتم بينهم. وتتخذ هذه التبادلات بمرور الوقت شكل التنظيمات الاجتماعية المعقدة كالجامعات والشركات والمؤسسات. وفي هذا الصدد، يذكر «سكدمور» W.SKidmore[١٣] أن الفرد يمثل وحدة التحليل الأساسية في نظرية التبادل الاجتماعي. فالفرد هو الوحدة التي تتم ملاحظتها للتعرف على طبيعة النظام الاجتماعي. وعلى الرغم من أن الفرد يمثل نقطة البداية في نظرية التبادل، إلا أن النظرية لاتستمر في تركيزها على ملاحظة الفرد، بل تنتقل إلى محاولة فهم طبيعة الجماعات.

وتقوم نظرية التبادل الاجتماعي على أساس أن الأفراد يتفاعلون مع بعضهم البعض، نظراً لأنهم يحصلون عن طريق هذا التفاعل على بعض المكافآت الاجتماعية فالأفراد يستمرون في علاقاتهم الاجتماعية طالما أن هذه العلاقات تحقق لهم بعض الفائدة التي تفوق التكلفة التي تترتب عليها. وتشير التكلفة إلى بعض الاعتبارات أو العوامل السلبية مثل التعب أو القلق، وكل ما نحاول تجنبه. كما تشير المكافآت إلى أي شيء نتحمل التكلفة من أجل الحصول عليه. أما الأرباح، فهي ناتج طرح التكاليف من المكافآت، وفي الواقع، نحن لانتبادل النقود والأشياء المادية فقط، بل نتبادل أيضاً الخدمات الاجتماعية، والعواطف، والأمن، والنفوذ، والمعلومات(١٤).

كما تذهب هذه النظرية إلى أن الناس يتفاعلون بطريقة عقلانية رشيدة، بالإضافة إلى أنهم معتمدون على بعضهم البعض في سبيل تحقيق أهدافهم. والمجتمع عبارة عن شبكة من عمليات التبادل، ومن خلال هذه العمليات التبادلية يؤدي المجتمع وظائفه المختلفة. إذ إن الموارد أو المصادر تعد محدودة، ويجب أن يحصل الناس على حاجاتهم من الآخرين عن طريق تكوين العلاقات الاجتماعية، وتبادل السلع والخدمات(١٥).

ويتضح مما سبق، أن نظرية التبادل الحديثة تقوم على بعض الافتراضات النفعية. فالأفراد يأخذون في الاعتبار أثناء تعاملهم الاجتماعي حساب الفوائد (الأرباح) في مقابل التكلفة التي تترتب على هذا التعامل. ويتم التعامل بين الأفراد عادة عن طريق كل من الفوائد والتكلفة(١٦). كما تشير هذه النظرية إلى أن التبادل لايقتصر على التعامل المادي في السوق الاقتصادي، بل إن الأفراد قد يتبادلون مع بعضهم البعض أشياء غير مادية مثل المشاعر والخدمات المختلفة. ومن الواضح أن هذه النظرية تعبر عن المجتمع الأمريكي الذي ظهرت فيه، ومايسوده من نزعة فردية، ومنافسة، والسعي من أجل الربح.

ثانياً: منظور «بلاو» عن التبادل في الحياة الاجتماعية

الواقع أن «بلاو» له عدة مؤلفات هامة(١٨). وللتعرف على أهم ملامح المنظور الذي قدمه «بلاو» عن التبادل في الحياة الاجتماعية، يمكن الرجوع إلى

مؤلفه عن (التبادل والقوة في الحياة الاجتماعية) Exchange and power in Social life الذي نشره عام ١٩٦٤, إذ يتضمن هذا المؤلف أهم القضايا النظرية التي أثارها «بلاو»، والتي شكلت منظوره الجديد الذي يطلق عليه (البنائية التبادلية) Exchange Structuralism.

ويذكر «تيماشيف»[١٩] أن النصف الأول من كتاب «بلاو» السالف الإشارة إليه، يوضح المقصود بالتبادل والقوة. فالتبادل الاجتماعي (الذي يمثل التبادل الاقتصادي أحد أنواعه فقط) يعتبر (الميكانيزم) الرئيسي في الحياة الاجتماعية، أو المبدأ الرئيسي الذي تنهض عليه الطبيعة البشرية أو يمثل على الأقل جزءاً جوهرياً منها. أما مفهوم القوة الاجتماعية Social Power، فيشير إلى (الميكانيزمات) التي تكفل ضبط سلوك الآخرين عن طريق الجزاءات السلبية، فمن الضروري أن يكون هناك عقاب لكل من يخرق القواعد التي تستند إليها النظم العامة التي يتولى صياغتها أصحاب القوة. أما النصف الثاني من كتاب «بلاو» السالف الذكر، فقد تضمن تحليل الجماعات الثانوية على اعتبار أنها تتكون من جماعات أولية، بالإضافة إلى توضيح بعض المفاهيم مثل القيم والمعايير الاجتماعية.

وقد استخدم «بلاو» في منظوره الجديد بعض المفاهيم مثل التنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعي على أساس أنها عمليات تعمل على تحقيق النظام في المجتمع[٢٠].

كما يحتل مفهوم القيم أهمية خاصة في المنظور الذي قدمه «بلاو»، فالأفراد يشاركون في علاقات متبادلة في ضوء مجموعة من القيم، وقد استخدم «بلاو» مفهوم الاتفاق حول القيم للإشارة إلى التضامن والتكامل بين أعضاء الجماعات وتماسك عناصر البناء الاجتماعي. ويذهب «بلاو» إلى أن المشاركة في قيم جماعة معينة يشير إلى التضامن والتكامل بين أعضاء هذه الجماعة. إلا أن الالتزام بقيم جماعة معينة قد يؤدي إلى تمايز واختلاف الجماعات بعضها عن البعض الآخر، مما قد يؤدي إلى ظهور التناقضات والصراع والعداوة بين الجماعات المختلفة. إلا أن بعض القيم العامة قد تخفف من حدة هذه التناقضات والصراع. وعلى سبيل المثال، إذا اعتبرنا النجاح الاقتصادي يمثل قيمة مقبولة للإنجاز الاجتماعي، فإن ذلك

قد يؤدي إلى تماسك البناء الاجتماعي، إلا أنه في نفس الوقت بمثابة معيار للتفرقة نسبياً بين الأفراد الذين يحققون هذا النجاح، وبين الأفراد الذين يعجزون عن تحقيقه بنفس الدرجة. ومن ثم يتضمن البناء الاجتماعي كل عوامل التماسك المتمثلة في القيم العامة، بالإضافة إلى عوامل التفكك التي تؤدي إلى الصراع وضعف التضامن الاجتماعي.

وقد استعار «بلاو» من علم الاقتصاد بعض المفاهيم مثل مفهوم التكلفة Cost، والفائدة Profit، والاستثمار Investments. ولم يقتصر «بلاو» على مجرد استخدام هذه المفاهيم، بل حاول صياغة بعض القوانين والافتراضات النظرية الأولية حول التبادل في الحياة الاجتماعية، تشبه تلك القوانين والافتراضات النظرية الاقتصادية. ويتضمن مؤلف «بلاو» عن (التبادل والقوة في الحياة الاجتماعية) كثيراً من الأمثلة التي توضح محاولاته استخدام قوانين العرض والطلب وتناقص الغلة، والمنحنيات الاقتصادية، في تفسير السلوك الفردي والجماعي(٢١).

ونجد أن المنظور الذي قدمه «بلاو» يصور الإنسان على أنه منطقي وعقلاني في وضعه لأهدافه وفي تحديده لوسائل تحقيقها. فالناس يبحثون بعقلانية عن الأهداف. إلا أن هذه الأهداف تتأثر ببعض العوامل التي ترجع إلى البناء الاجتماعي. أي أن الناس أحرار في اختيار أهدافهم من خلال بدائل بنائية محددة(٢٢).

وقد استخدم «بلاو» مفهوم التبادل الاجتماعي لتفسير كافة أنماط التجمعات الإنسانية، وكذلك العمليات التي تتم داخل هذه التجمعات (Blau, 1964:2). ويؤكد «بلاو» أن نفس العمليات الأساسية التي تميز علاقات المواجهة في الجماعات الصغيرة، تظل قائمة على مستوى الوحدات الكبرى. فالعمليات الاجتماعية الأكثر تعقيدا تتطور من عمليات بسيطة. ويطلق «بلاو» على أنماط التفاعل المنبثقة عن المواجهة المباشرة مصطلح (البناءات الصغرى) Microstructures، وهو يعتبرها (بناءات) لأن المكافآت التي ينطوي عليها هذا اللون من التفاعل إنما تدعم القواعد المنظمة للعلاقات، والسيطرة، والقوة، والضبط الشرعي، وتقسيم العمل. كما أنه يعتبرها (صغرى) لأنها تحدث على مستوى علاقة المواجهة المباشرة. إلا أن عدد

الأعضاء يزيد باستمرار، فتتكون البناءات الكبرى، بحيث يمكننا أن نتحدث عن المنظمات الرسمية، والهيئات، والبيروقراطيات، وهذه البناءات الكبرى تتألف بدورها من بناءات صغرى(٢٣).

ويتضح مما سبق، أن «بلاو» ينظر إلى البناء الاجتماعي على اعتبار أنه يتشكل من عدة أجزاء مترابطة. إلا أنه يرى أن هذا البناء يعد بمثابة ظاهرة تحدث تلقائياً نتيجة عمليات التبادل الاجتماعي.

ويرى «بلاو» أن قوى الجاذبية الاجتماعية Social attraction تتركب من الشعور بالانجذاب والرغبة في الحصول على مختلف أنواع المكافآت rewards. وهذه القوى لها جذور في العمليات النفسية الأولية، وتؤدي إلى حدوث عملية تبادل الموارد أو المصادر exchange of resources، التي تعتبر أول خطوة في عملية تكوين الرابطة الاجتماعية Social association، وبمجرد أن تحدث عملية التبادل للموارد أو المصادر يحدث التمايز والاختلاف بين الأفراد في المكانة Status والقوة Power(٢٤).

وقد اعتبر «بلاو» أن التبادل يؤدي للصراع طالما أنه يتضمن دائماً التفاوت في توزيع القوة(٢٥).

وقد اهتم «بلاو» بتحليل التفاعل المتبادل وأنماط المكافآت والتكاليف التي ينطوي عليها هذا التفاعل. ويفترض «بلاو» أن الأفراد يسعون إلى زيادة المكافآت وتقليل التكاليف. إلا أن هناك بالضرورة حالات لعدم التوازن عندما لاتتضمن التبادلات الاجتماعية مكافأة متساوية بالنسبة لطرفي التبادل. وقد جذبت حالات عدم التوازن اهتمام «بلاو»، واعتبرها ذات أهمية خاصة في فهم بناء الجماعة والقوة الاجتماعية.

وقد كشف منظور «بلاو» عن النتائج المترتبة على أنماط التبادل غير المتوازنة بين الأشخاص. إذ أن انعدام التوازن يؤكد قدرة أحد أطراف العلاقة التبادلية على تحقيق مكافأة أكثر من الطرف الآخر. ويترتب على هذه العلاقة غير المتكافئة من حيث العائد الذي يعود على أطراف العلاقة التبادلية، أن يمتلك أحد الطرفين للمصادر أو الموارد، وبالتالي اكتساب المكانة والقوة، والتمتع بالقيادة، والقدرة على

السيطرة على الآخرين. ويتطلب الموقف من الطرف الآخر الخضوع Subordination أو الامتثال Compliance لرغبات الطرف الآخر الذي أكتسب المكانة والقوة(٢٦).

وهكذا تؤدي عمليات التبادل الاجتماعي إلى نشأة التمايز بين الأشخاص في المكافآت والقوة. وتحتاج كل المنظمات الاجتماعية إلى هذا النوع من التمايز، فبدون القادة وبدون امتثال وخضوع المرؤوسين للأوامر الصادرة من الرؤساء يتعذر أداء العمل وإنجاز أهداف المنظمات، نظراً لأن تنسيق الجهود يحتاج إلى القوة أو السلطة كما يحتاج في نفس الوقت إلى الخضوع أو الامتثال(٢٧).

وقد حاول «بلاو» الكشف عن الكيفية التي يستطيع بها البناء الاجتماعي تحقيق نوع من الاستقرار أو عدم الاستقرار لأنماط التبادل الاجتماعي، بالإضافة إلى أنه قد حاول التعرف على العوامل التي تؤدي إلى حدوث عملية التغير الاجتماعي. وفي هذا الصدد، يرى «بلاو» أنه إذا كانت المميزات والمنفعة الناجمة عن الإذعان أو الامتثال تفوق المشقة والعناء المبذول في العمل طبقاً لرغبة صاحب القوة، أدى ذلك إلى الاتفاق العام consensus، وبالتالي إلى شرعية القوة. ومن ثم تصبح السلطة الشرعية أساس التنظيم، وتؤدي إلى استقراره. أي أن شرعية القوة تؤدي إلى التوازن في العلاقات واستقرار التنظيم.

أما إذا كانت المميزات والمنفعة الناجمة عن الإذعان والامتثال لا تعدل المشقة والعناء المبذول في العمل الذي يرغبه صاحب القوة، فإن ذلك يؤدي إلى شعور الأفراد بالاستغلال لأنهم يحصلون على مكافآت غير مشبعة وغير كافية، مما قد يؤدي إلى إحساس الأفراد بالغضب والإحباط أو العدوانية، وبالتالي رفضهم الجمعي للقوة. ومن ثم تظهر قوى معارضة للجماعة التي في مركز القوة. ومن ثم يحدث عدم التوازن في العلاقات، والصراع، وعدم استقرار التنظيم، وبالتالي حدوث عملية التغير الاجتماعي Social Change(٢٨).

ويتضح مما سبق، أن المنظور الذي قدمه «بلاو» يجمع بين التحليل على مستوى الوحدات الكبرى والتحليل على مستوى الوحدات الصغرى. ويذهب هذا المنظور إلى أن عمليات التبادل الاجتماعي تؤدي إلى نشأة التمايز والفروق في المكانة والقوة بين الأشخاص، كما تؤدي استقرار أو عدم استقرار البناء الاجتماعي،

بالإضافة إلى أنها تؤدي إلى حدوث عمليات الصراع والتغير الاجتماعي.

ثالثاً: مدى الالتقاء بين المنظور الذي قدمه «بلاو» وبين غيره من الاتجاهات النظرية

من استعراض الملامح الأساسية للمنظور الذي قدمه «بلاو» عن التبادل في الحياة الاجتماعية، يتضح أن هذا المنظور لايمكن النظر إليه على اعتبار أنه منظور مستقل تماماً عن غيره من الاتجاهات النظرية السابقة، مثل الاتجاه البنائي الوظيفي، ونظريات الصراع، والتفاعلية الرمزية.

وعلى الرغم من أن منظور «بلاو» يختلف عن غيرة من الاتجاهات النظرية السابقة اختلافاً واضحا. إلا أن هذا الاختلاف لا يمنعنا من القول بأن هناك نوعاً من التقارب أو الالتقاء بين هذا المنظور وبين غيره من الاتجاهات النظرية في علم الاجتماع.

ومن الملاحظ أن هناك كثيرا من أوجه الاتفاق بين منظور «بلاو» عن البنائية التبادلية، وبين الاتجاه البنائي الوظيفي Structural functionalism[٢٩] ويتضح هذا الاتفاق من خلال استخدام «بلاو» لبعض المفاهيم مثل الاتفاق حول القيم للإشارة إلى التضامن والتكامل بين أعضاء الجماعات وتماسك البناء الاجتماعي[٣٠].

كما يتفق منظور «بلاو» مع الاتجاه البنائي الوظيفي من حيث استخدام هذا المنظور لبعض المفاهيم مثل التنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعي على أساس أنها عمليات تعمل على تحقيق الانتظام في المجتمع[٣١]. وقد كان ذلك هو مايهدف إليه «بارسونز» في مؤلفه (النسق الاجتماعي) Social System، حيث أشار إلى أن الانتظام في المجتمع أو ما يطلق عليه التوازن الاجتماعي Social equilibrium إنما يتحقق ويتم المحافظة عليه عن طريق كل من التنشئة الاجتماعية Socialization والضبط الاجتماعي Social Control والأسلوبان مكملان لبعضهما البعض، وهدفهما جعل أفراد المجتمع يمتثلون للمعايير التي توجد بالنسق الاجتماعي. فإذا فشلت عملية التنشئة الاجتماعية في جعل الأفراد يمتثلون للمعايير، فإن عملية الضبط الاجتماعي تجبرهم على ذلك الامتثال[٣٢].

وبالإضافة إلى ما سبق، يتفق منظور «بلاو» مع الاتجاه البنائي الوظيفي من

حيث تخيل كل منهما للطبيعة الإنسانية. إذ يتفق «بلاو» مع كل من «بارسونز» T.Parsons و«ميرتون» R. Merton في الاعتقاد بأن الناس يبحثون بعقلانية عن الأهداف. إلا أن هذه الأهداف تتأثر ببعض العوامل التي ترجع إلى البناء الاجتماعي. فالناس أحرار في اختيار الأهداف من خلال بدائل بنائية محددة(٣٣).

كما يتفق منظور «بلاو» مع الاتجاه البنائي الوظيفي من حيث مفهومه عن البناء الاجتماعي إذ ينطلق مفهوم البناء الاجتماعي عند «بلاو» P.M.Blau(٣٤) من مفهومات محسوسة بسيطة للأجزاء المكونة له، والعلاقات بين هذه الأجزاء. فأجزاء البناء الاجتماعي تتمثل في الجماعات أو الفئات الاجتماعية كالرجال، والنساء، والجماعات الاثنية، أو الطبقات الاجتماعية الاقتصادية. وتمثل هذه الأجزاء مراكز الناس في الجماعات والطبقات المختلفة. ونجد أن الارتباط بين كل من هذه الأجزاء وبين الأجزاء وبعضها البعض تمثل العلاقات الاجتماعية بين الناس في مختلف الجماعات والطبقات، والتي تعبر عن نفسها خلال عملية التفاعل والاتصال بين الناس.

إلا أن منظور «بلاو» يختلف عن الاتجاه البنائي الوظيفي من حيث افتراض هذا المنظور أن البناء الاجتماعي يعد بمثابة ظاهرة تحدث تلقائياً نتيجة عمليات التبادل الاجتماعي. أما الاتجاه البنائي الوظيفي، فيفترض وجود البناء الاجتماعي دون الحاجة إلى إثبات وجوده عن طريق أي جهد نظري(٣٥)، وبينما تميل البنائية الوظيفية إلى التركيز على جانب واحد فقط للعلاقة بين متغيرين (أ)، (ب)، نجد أن البنائية التبادلية تسمح بتحليل كافة أنماط التفاعل المتوقعة بين هذين المتغيرين. فالبنائية الوظيفية تعني ببحث النتائج المصاحبة للمتغير (أ) على الظاهرة الاجتماعية (ب)، وتفترض أن تأثير (ب) شيء آلي أو لا يمثل مشكلة يجب دراستها، أما البنائية التبادلية، فهي تشير إلى ضرورة بحث كلا الجانبين، أي دراسة العلاقات المتبادلة بين المتغيرين(٣٦).

كما أن هناك نوعاً من الاتفاق بين منظور «بلاو» وبين نظريات الصراع Conflict theories(٣٧). وذلك كما يبدو من خلال عرض «بلاو» لمنظوره عن الصراع الجدلي. فلم يتجاهل «بلاو» حدوث عمليات الصراع، وإنما اعتبر التبادل

مؤديا إلى الصراع، طالما أنه يتضمن دائماً على التباين أو التفاوت في توزيع القوة[٣٨]. بالإضافة إلى أنه لم يتجاهل حدوث عملية التغير الاجتماعي ومن ثم يتفق منظور «بلاو» مع نظريات الصراع في الاهتمام بدراسة الصراع والتغير الاجتماعي.

وبالإضافة إلى ما سبق، يتفق المنظور الذي قدمه «بلاو» مع كل من اتجاه التفاعلية الرمزية Symbolic interactionism[٣٩] واتجاه منهجية الجماعة أو المنهجية الشعوبية Ethnomethodology[٤٠] من حيث الاهتمام بدراسة علاقات الوجه للوجه في مواقف التفاعل المختلفة. فعلى الرغم من اهتمام «بلاو» بالتبادل على مستوى البناء الاجتماعي، إلا أنه يؤكد أن نفس العمليات الأساسية التي تميز علاقات المواجهة تظل قائمة على مستوى الوحدات الأكبر. ويطلق «بلاو» على أنماط التفاعل المنبثقة عن المواجهة المباشرة مصطلح البناءات الصغرىMicrostructures[٤١]. مما يشير إلى أن منظور بلاو» قد جمع بين التحليل على مستوى الوحدات الكبرى والتحليل على مستوى الوحدات الصغرى[٤٢].

كما نجد، أن هناك بعض أوجه التشابه بين المنظور الذي قدمه «بلاو» وبين غيره من المنظورات الأخرى التي قدمها بعض علماء الاجتماع المعاصرين من أصحاب نظرية التبادل الاجتماعي أمثال «هومانز» G.C.Homans، و«ثيبوت» J, Thibaut، و«كيلي» H.Kelly، حيث أولى كل منهم موضوع التبادل في الحياة الاجتماعية المحل الأول من عنايته، وانطلق كل منهم من مسلمة أساسية، تزعم أنه من الملائم تناول البناء الاجتماعي من وجهة النظر الفردية. إلا أن الاختلاف الأساسي بين المنظور الذي قدمه «بلاو» وبين غيره من المنظورات السابقة، يتمثل في اهتمام «بلاو» بالتبادل الاجتماعي على مستوى البناء الاجتماعي، على اعتبار أن هذا البناء ينبثق عن أنماط التبادل. وذلك على عكس المنظورات النفسية للتبادل[٤٣].

ويجدر الإشارة إلى أن «بلاو» و«هومانز» يعتبران من أهم المنظرين الذين يمثلون حاليا نظرية التبادل الاجتماعي. إلا أن «بلاو» قد اهتم بالجوانب البنائية للتبادل الاجتماعي، لذلك يطلق على منظوره (البنائية التبادلية). أما «هومانز» فقد اهتم بالجوانب النفسية الفردية، ودراسة السلوك الاجتماعي. لذلك يطلق على

منظوره (السلوكية التبادلية)Exchange Behaviorism[٤٤] ونجد أن اهتمام «بلاو» بالتبادل الاجتماعي على مستوى البناء الاجتماعي، قد جعل «بيترايك» .Peter P Ekeh[٤٥] يصف ما قام به «بلاو» بأنه يمثل (اتجاه بنائي جمعي)، بينما يصف ما قام به «هومانز» بأنه يمثل (نظرية سلوكية فردية).

ويتفق «بلاو» مع «هومانز» من حيث إن البناءات الاجتماعية المعقدة قد تنشأ عن عمليات التبادل الاجتماعية الأساسية. إلا أن «هومانز» يذهب إلى أن هذه البناءات الاجتماعية التي تنشأ لايكون لها قوانينها الخاصة المستقلة، وأن جميع العمليات الاجتماعية ترجع الى الظواهر النفسية الأساسية[٤٦]. وعلى عكس ما سبق، يرى «بلاو» أنه بمجرد أن تنشأ هذه البناءات الاجتماعية المعقدة، فهي تحقق استقلالها، ويكون لها قوانينها الخاصة غير المعتمدة على العمليات الاجتماعية الأساسية التي أدت إلى ظهورها[٤٧].

ويتضح مما سبق، أن هناك نوعاً من الالتقاء بين المنظور الذي قدمه «بلاو» عن البنائية التبادلية وبين غيره من الاتجاهات النظرية في علم الاجتماع، مثل الاتجاه البنائي الوظيفي، ونظرية الصراع، والتفاعلية الرمزية. فقد حاول «بلاو» أن يجمع بين المفهومات والافتراضات النظرية التي أثارتها الاتجاهات النظرية السابقة في منظور سوسيولوجي واحد. مما يشير إلى أن هذا المنظور الذي قدمه «بلاو» يعد بمثابة محاولة لإحداث التكامل بين عدة اتجاهات نظرية مختلفة، ويأمل الباحث أن يستمر التقارب والالتقاء بين الاتجاهات النظرية المختلفة في علم الاجتماع، بهدف التوصل إلى نظرية سوسيولوجية موحدة.

رابعاً: تقييم مدى إسهام منظور «بلاو» في تطوير نظرية التبادل الاجتماعي

لتقييم منظور «بلاو» عن التبادل في الحياة الاجتماعية (البنائية التبادلية)، يتطلب الأمر تحديد بعض الأسس الموضوعية التي يتحدد على أساسها هذا التقييم. ومن هذه الأسس الافتراضات أو المسلمات الأساسية التي تدور حولها النظرية فيما يتعلق بالواقع الاجتماعي، وفيما يتعلق بطبيعة الإنسان وقدراته، وعلاقة العالم بالظاهرات الاجتماعية التي يدرسها، ومستوى النظرية ومدى الشمول فيها. وذلك بالإضافة إلى بعض أسس التقييم الأخرى مثل المضمون الأيديولوجي للنظرية،

والأدلة على صدق المسلمات والاستنتاجات التي تتضمنها النظرية، والإجراءات العملية التي تشير إليها(٤٨).

ويتضمن منظور «بلاو» بعض الافتراضات الخاصة بطبيعة الواقع الاجتماعي. إذ يفترض هذا المنظور أن البناء الاجتماعي يعد بمثابة ظاهرة تحدث تلقائياً نتيجة عمليات التبادل الاجتماعي. وقد سبق أن أشرنا إلى أن «بلاو» قد حاول التعرف على العوامل التي تؤدي إلى التكامل والاستقرار من جهة، بالإضافة إلى التعرف على العوامل التي تؤدي إلى الصراع والتغير الاجتماعي من جهة أخرى. أي أن منظور «بلاو» يتضمن بعض الافتراضات التي تتعلق بكل من الاستقرار والتغير في البناء الاجتماعي. كما أن هذا المنظور يتضمن بعض الافتراضات المتعلقة بكل من التكامل والصراع في الواقع الاجتماعي. مما يشير إلى أن منظور «بلاو» يعتبر بمثابة محاولة لإحداث التكامل بين الاتجاهات النظرية المختلفة في علم الاجتماع.

وبتحليل منظور «بلاو»، يتضح أن هذا المنظور يتضمن أيضاً بعض الافتراضات عن طبيعة الإنسان وقدراته، فهو يصوره على أنه منطقي وعقلاني في وضعه لأهدافه وفي تحديده لوسائل تحقيقها. فالإنسان يبحث عن أهدافه بعقلانية، ويقوم باختيار أهدافه من خلال بدائل بنائية محددة. أي أن أهداف الإنسان تتأثر ببعض العوامل التي ترجع إلى البناء الاجتماعي(٤٩) إلا أننا نلاحظ أن منظور «بلاو» – شأنه شأن المنظورات المختلفة التي تتضمنها نظرية التبادل الاجتماعي – يتضمن نزعة ضد الإنسان، فهو يصوره على اعتبار أنه كائن اقتصادي نفعي ينحصر سلوكه في حساب المكافأة والتكلفة تحقيقاً لرغباته وميوله الفردية الخاصة. فالأفراد ينضمون إلى عضوية الجماعات لأسباب نفعية(٥٠) كما يتضمن منظور «بلاو» بعض المتغيرات التي استخدمها في تفسيره للظاهرات التي يدرسها، والتي تعكس افتراضاته الأساسية عن طبيعة الواقع الاجتماعي، ومن أهم هذه المتغيرات، متغير القوة الاجتماعية Social Power ومتغير القيم الثقافية Cultural Values. ويتضح أهمية متغير القوة من عنوان مؤلفه (التبادل والقوة في الحياة الاجتماعية). ويشير هذا المتغير إلى (الميكانيزمات) التي تكفل ضبط سلوك الآخرين عن طريق الجزاءات السلبية، فمن الضروري أن يكون هناك عقاب لكل من يخرج على القواعد التي تستند إليها النظم العامة التي يتولى صياغتها أصحاب القوة. كما يحتل متغير القيم

أهمية خاصة في منظور «بلاو»، حيث إنه ذهب إلى أن الأفراد يشاركون في علاقات متبادلة في ضوء مجموعة من القيم. وقد استخدم «بلاو» مفهوم الاتفاق حول القيم للإشارة إلى التضامن والتكامل بين أعضاء الجماعات وتماسك عناصر البناء الاجتماعي.

أما عن الافتراضات الأساسية التي وردت في منظور «بلاو» المتعلقة بمستوى النظرية ومدى الشمول فيها. فنجد أن المنظور الذي قدمه «بلاو» يتميز بمحاولته الجمع بين التحليل على مستوى الوحدات الصغرى والتحليل على مستوى الوحدات الكبرى[٥١] فقد حاول «بلاو» سد الثغرات الموجودة بين دراسة العمليات الصغرى للتفاعل، والصراع، والتبادل بين الأفراد من جهة، وبين دراسة الوحدات البنائية كالجماعات، والمجتمعات المحلية، والتنظيمات والنظم الاجتماعية من جهة أخرى[٥٢].

ونجد أن منظور «بلاو» يختلف عن غيره من المنظورات الأخرى التي تتضمنها نظرية التبادل الاجتماعي من حيث اهتمام هذا المنظور بالتبادل الاجتماعي على مستوى البناء الاجتماعي. أما المنظورات الأخرى فقد ردت العمليات الاجتماعية إلى الظواهر النفسية الأولية، واهتمت بالجوانب الفردية النفسية[٥٣] ومن ثم فإن هذه المنظورات الأخرى قد جعلت السلوك في النهاية هو الموضوع الأساسي لعلم الاجتماع، وهو الوحدة الأساسية للتحليل السوسيولوجي، مما يجعل من علم الاجتماع علما إمبيريقيا يعتمد على استخدام بعض الأساليب مثل الإحصاء، ودراسة الحالة، والدراسة المقارنة[٥٤].

ويتضمن منظور «بلاو» بعض جوانب القوة والضعف. وتتمثل جوانب القوة في محاولة هذا المنظور الاستفادة من القضايا الحيوية التي قدمتها بعض الاتجاهات النظرية السابقة مثل الوظيفية، ونظريات الصراع، والتفاعلية الرمزية، والمنظورات المختلفة الأخرى لنظرية التبادل الاجتماعي، وذلك مع محاولة تلافي أوجه النقد التي تعرضت لها هذه الاتجاهات النظرية السابقة، وعلى سبيل المثال، نجد أن منظور «بلاو» قد اهتم بدراسة التبادل على مستوى البناء الاجتماعي، مما جعل منظوره يقترب من الوظيفة. إلا أنه في نفس الوقت قد اهتم بدراسة التغير الاجتماعي، وذلك حتى يتلافى أوجه النقد التي وجهت إلى الوظيفية على أساس إهمالها

لدراسة التغير الاجتماعي. أي أن منظور «بلاو» يعد بمثابة محاولة للتقريب بين عدة اتجاهات نظرية مختلفة. فقد حاول «بلاو» أن يجمع بين المفهومات والافتراضات التي أثارتها الاتجاهات النظرية السابقة في منظور سوسيولوجي واحد. ومن ثم فإن «بلاو» يشبه إلى حد كبير بعض المنظرين - مثل «بارسونز» T. Parsons - الذين حاولوا تطوير نظرية سوسيولوجية عامة، وقدموا إسهامات ملفتة في مجال بناء نظرية علم الاجتماع[٥٥].

إلا أنه مما يؤخذ على هذا المنظور الذي قدمه «بلاو» أنه قد جعل التبادل الاجتماعي محوراً لمختلف أنماط السلوك في جميع المواقف. أي أن كثيراً من أنماط السلوك الإنساني توجد عن طريق التبادل[٥٦]، وأنه يتعين حساب العلاقات الاجتماعية التي تنشأ بين الأفراد في ضوء متغيرات اقتصادية خالصة. بالإضافة إلى أن هذا المنظور قد أدخل مفهوم البناء الاجتماعي إلى خريطة التبادل الاجتماعي بصورة تعسفية، بوصفه مفهوما يمكن اختزاله إلى مجموعة تفاعلات شخصية تقوم على علاقة المواجهة المباشرة[٥٧].

ومن أوجه النقد الأخرى التي تعرض لها منظور «بلاو» عن التبادل في الحياة الاجتماعية، أن هذا المنظور قد استخدم مفهومات غير دقيقة، واعتمد على بعض المبادىء الأساسية غير المحددة بشكل واضح. بالإضافة إلى اقتصار أفقه على الاقتصاد والحياة السياسية، وندرة استخدامه لحقائق من الخبرة اليومية[٥٨] ومن ثم يرى بعض النقاد أن معالجة هذا المنظور للواقع الاجتماعي تعد معالجة غامضة وغير دقيقة، وغير مقنعة من الناحية السوسيولوجية.

ويشير «بيرسي كوهن» Percy Cohen[٥٩] إلى أن تحليل «بلاو» لنشأة التمايز والفروق بين الأشخاص في القوة نتيجة عمليات التبادل الاجتماعي، يتجاهل الموقف الاجتماعي الذي تظهر فيه القوة. أي أن هذا المنظور يتجاهل الظروف الاجتماعية الخارجية المسؤولة عن ظهور القوة. فالقيادة لايمكن أن تظهر إلا إذا تهيأت الظروف المناسبة لاستخدام الشخص لمهاراته وتحقيق أهدافه. وقد تكون هذه الظروف هي المسؤولة عن ظهور نمط القيادة.

ويتضح مما سبق، أن منظور «بلاو» قد تعرض لبعض أوجه النقد، خاصة من

بعض المؤيدين للاتجاهات النظرية المختلفة التي حاول «بلاو» أن يستفيد من مفهوماتها وقضاياها في صياغة منظوره الجديد عن (البنائية التبادلية). فقد رأى هؤلاء المؤيدون للاتجاهات النظرية الأخرى أن منظور «بلاو» سوف يضعف من شأن اتجاهاتهم النظرية، وأنه من الصعب صياغة منظور جديد يجمع بين عدة اتجاهات نظرية متباينة داخل إطار منظور سوسيولوجي واحد. ومن ثم يرجىء بعض علماء الاجتماع تقييمهم لمدى الإسهام الذي قدمه منظور «بلاو» إلى أن يتم التحقق من صدق القضايا التي يثيرها هذا المنظور عن طريق البحث الإمبيريقي من جهة، ومن خلال التطور النظري من جهة أخرى[٦٠].

ويجدر الإشارة إلى أن أوجه النقد التي تعرض لها منظور «بلاو» تعد قليلة نسبياً بالمقارنة بأوجه النقد التي تعرض لها منظور «هومانز» عن السلوكية التبادلية[٦١] كما أن هذا المنظور يتضمن من جوانب القوة ما قد يفوق جوانب النقص[٦٢] إلا أننا يجب أن نلاحظ أن القضايا النظرية التي أثارتها نظرية التبادل بوجه عام، والتي أثارها «بلاو» في منظوره عن (البنائية التبادلية) بوجه خاص، إنما تعكس طابع الحياة والثقافة الأمريكية، فهي تعد بمثابة تعبير واضح ومثال حي للمجتمع الأمريكي ومايسوده من نزعة فردية، والسعي من أجل الربح واعتبار هذا الربح مقياس كل شيء، حتى العلاقات الاجتماعية التي تنشأ بين أعضاء المجتمع يتعين حسابها في ضوء مقولات اقتصادية خالصة.

ويرى الباحث، أنه إذا كانت نظرية التبادل الاجتماعي قد نشأت في المجتمع الأمريكي، فقد تكون ملائمة للواقع الاجتماعي في هذا المجتمع، ويجب على الباحثين في المجتمع العربي الحذر عند الاستعانة بمثل هذه النظرية في توجيه البحوث الاجتماعية التي تجري في المجتمع العربي الذي يختلف واقعه عن واقع المجتمع الذي ظهرت فيه هذه النظرية.

الخلاصـــة

تُعد نظرية التبادل الاجتماعي من النظريات المعاصرة التي ظهرت كإحدى البدائل النظرية في علم الاجتماع الغربي، وترجع الجذور الفكرية لهذه النظرية إلى كل من الاقتصاد النفعي، والأنثروبولوجيا الوظيفية، وعلم النفس السلوكي. وتقوم

هذه النظرية على أساس أن الأفراد يتفاعلون مع بعضهم البعض بطريقة عقلانية رشيدة، نظراً لأنهم يحصلون عن طريق هذا التفاعل على بعض المكافآت الاجتماعية التي تفوق التكلفة التي تترتب على هذا التفاعل. ويتكون المجتمع من مجموعة التبادلات التي تتم بين الأفراد، والتي تتخذ بمرور الوقت شكل التنظيمات المعقدة، وتعتبر أساس النظام الاجتماعي العام.

ويعتبر «بيتربلاو» P.M.Blau من أهم العلماء الذين أسهموا في تطوير نظرية التبادل الاجتماعي، ففي مؤلفه بعنوان (التبادل والقوة في الحياة الاجتماعية)، قدم منظوره عن التبادل في الحياة الاجتماعية. وقد ذهب «بلاو» في هذا المنظور إلى أن التبادل الاجتماعي يعد المبدأ الرئيسي الذي تنهض عليه الطبيعة البشرية. ويؤدي هذا التبادل إلى استقرار البناء الاجتماعي، كما أنه يؤدي إلى حدوث عملية التغير الاجتماعي. فالأفراد تحركهم وتجذبهم الرغبة في الحصول على مختلف أنواع المكافآت. وعن طريق التبادل الاجتماعي ينشأ التمايز والفروق بين الأفراد في المكافآت والقوة.

ويؤدي الاتفاق العام أو التأييد الجمعي لموقف القوة إلى شرعيتها، وبالتالي إلى استقرار البناء الاجتماعي، أما الرفض لموقف القوة، والإحساس بالاستغلال أثناء عملية التبادل الاجتماعي، يؤدي إلى عدم التوازن في العلاقات، وإلى المعارضة، والصراع، وبالتالي حدوث عملية التغير الاجتماعي.

ويعد هذا المنظور الذي قدمه «بلاو» بمثابة إسهام نظري في سبيل إنشاء نظرية عامة استقرائية تحاول دراسة التبادل الاجتماعي على مستوى البناء الاجتماعي. ومن ثم يطلق على هذا المنظور (التبادلية البنائية) Exchange Structuralism. ويتميز هذا المنظور بعدم الاقتصار على مجرد الاهتمام بالجوانب الفردية النفسية في عملية التبادل على النحو الذي اتبعه «هومانز» G.C.Homans في منظوره الذي يطلق عليه (التبادلية السلوكية) Exchange Behaviorism.

كما يتميز المنظور الذي قدمه «بلاو» بمحاولته إضافة بعض المبادىء الاقتصادية إلى وجهة النظر الاجتماعية التبادلية، وصياغة بعض القوانين والافتراضات النظرية الأولية عن التبادل في الحياة الاجتماعية، تشبه تلك القوانين

والافتراضات النظرية الاقتصادية، مما قد يثري عملية التفسير السوسيولوجي.

وبالإضافة إلى ما سبق، حاول «بلاو» الاستفادة من المفهومات والافتراضات المختلفة التي وردت في بعض النظريات السوسيولوجية مثل الوظيفية ونظرية الصراع، والتفاعلية الرمزية. مما يشير إلى أنه قد حاول سد الثغرات الموجودة بين التحليل على مستوى الوحدات الكبرى والتحليل على مستوى الوحدات الصغرى.

وعلى الرغم من أن منظور «بلاو» يتضمن من جوانب القوة ما قد يفوق جوانب النقص، إلا أننا لازلنا في حاجة إلى التحقق من صدق القضايا التي يثيرها هذا المنظور عن طريق البحث الإمبيريقي، خاصة في المجتمع العربي الذي يختلف واقعه عن واقع المجتمع الأمريكي الذي ظهر فيه منظور «بلاو» عن التبادلية البنائية.

الهوامش والمراجع

(١) سمير نعيم أحمد: **النظرية في علم الاجتماع**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩، ص ٢٥٧ .

(٢) يرى جولدنر A.Gouldner أن الأزمة القادمة في علم الاجتماع الغربي سوف تنجم عن التغييرات السريعة التي يمر بها هذا العلم، ومايصاحب ذلك من مختلف أشكال الصراعات والتوترات. أي أن هذه التغييرات السريعة وما يصاحبها من تناقضات وصراعات يمكن أن تؤدي إلى حدوث تلك الأزمة في علم الاجتماع الغربي إذا لم يصحح العلم من مساره ويتغلب على تناقضاته.

انظر:

Gouldner, Alvin W, **The Coming Crisis of Western Sociology,** Lodon : Heinmann 1970, pp. 341-342.

(٣) ن. تيماشيف: **نظرية علم الاجتماع: طبيعتها وتطورها**، ترجمة: محمود عودة وآخرون، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧، ص ٣٧٨ .

(٤) Poloma, Margaret M.

Contemporary Sociological Theory, New York: Macmillan Publishing Co, Inc, 1979, PP, 61-62.

(٥) Turner, Jonathan H, **The Structure of Sociological Theory,** I Linois: The Dorsey Press, 1982, P.211.

(٦) Skidmore, William, **Theoritical Thinking in Sociology,** Cambridge: Cambridge University Press, 1979, PP, 78-104.

(٧) Timasheff, N.S.& Theodorson, G.A. Sociological Theory: Its Nature and Growth, New

York: Random House, 1976, P.340.

(٨) Turner, J.H., OP. Cit, P.197.

(٩) Homans, George C., Social Behaviour: Its Elementary Forms, New York: Harcourt, Brace and World, 1961, P. 16.

(١٠) Timasheff, N.S.& Theodorson G.A., OP. Cit, P.344.

(١١) "Emerson, Rrichard M, Social Exchange Theory", in Alex Inkeles (ed.), Annual Review of Sociology, Vol. 2, Palo Alto, Calif: Annual review, Inc, 1976, p.335-62.

(١٢) Turner, J.H, Op. Cit, PP, 288-289.

(١٣) Skidmore, W, OP. Cit, P.71.

(١٤) Zanden, James W. Vander,**The Social Experience**, New York, McGraw - Hill Publishing Co., 1990, P, 182.

(١٥) Mc Gee, Reece et al. (ed.), Sociology: An Introduction Illinois: The Dryden Press, 1977, PP, 28-31.

(١٦) Turner, J, H. OP. Cit, P. 198.

(١٧) ولد «بيتربلاو» Peter M. Blau في (فيينا) Vienna، وحصل على شهادته الجامعية الأولى من كلية (المهرست) Elmhurst عام ١٩٤٢، ثم حصل على درجة الماجستير في علم الاجتماع من جامعة (كامبردج) Campridge عام ١٩٥٠ .كما حصل على درجة الدكتوراه من جامعة (كولومبيا) Columbia عام ١٩٥٢ . وقد قام بالتدريس في كل من جامعة (كورنل) Cornell وجامعة (شيكاغو) Chicago. وفي عام ١٩٧٠ عاد إلى جامعة (كولومبيا) التي سبق أن حصل منها على درجة الدكتوراه، حيث شغل وظيفة أستاذ علم الاجتماع. وفي عام ١٩٧٤ شغل وظيفة رئيس الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع. انظر: محمد فؤاد حجازي: **النظريات الاجتماعية**، القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٨٠، ص ٢٢٣ .

Timoshiff, N.S. & Theodorson, G.A, OP, Cit, P.346.

(١٨) نشر «بلاو» عدة مؤلفات هامة، منها مؤلفه بعنوان (ديناميكية البيروقراطية) The Dynamic of Bureaucracy الذي نشره عام ١٩٥٥، ومؤلفه عن (البيروقراطية في المجتمع الحديث) Bureaucracy in modern Society الذي نشره عام ١٩٥٦، بالإضافة إلى مؤلفه بعنوان (تنظيم العمل الأكاديمي) The Organization of Academic Work، الذي نشره عام ١٩٧٣ .كما اشترك «بلاو» مع «سكوت» W.Richard Scott في إعداد مؤلف بعنوان (التنظيمات الرسمية) Formal Organizations عام ١٩٦٢، واشترك مع «دنكان» Otis Dudely Duncan في إعداد مؤلف بعنوان (البناء المهني الأمريكي) The American Occupational Structure عام ١٩٦٧، بالإضافة إلى اشتراكه مع «شونهار» Richard A. Schoenherr في مؤلف بعنوان (بناء

التنظيمات) The Structure of Organizations عام ١٩٧١ . الا أن أهم إسهام قدمه «بلاو» لنظرية التبادل الاجتماعي قد ورد في كتابه عن (التبادل والقوة في الحياة الاجتماعية) Exchange and Power in Social Life الذي نشر عام ١٩٦٤ .

انظر: Timasheff, N.S& Theodorson, Op, Cit, P. 346.

(١٩) نظرية علم الاجتماع: طبيعتها وتطورها، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٤ .

(٢٠) Turner, J. H. OP. Cit. P.269.

(٢١) Skidmore, W, OP, Cit, PP.96-97.

(٢٢) Poloma, M.M. OP. Cit. P. 61.

(٢٣) محمد علي محمد: **تاريخ علم الاجتماع: الرواد والاتجاهات المعاصرة**، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٣، ص ٥٠١ .

(٢٤) النظريات الاجتماعية، ص ٢٢٤ .

(٢٥) Coser, Lewis, A., The Functions of Social Conflict, London: Free Press of Glencoe, 1956, P, 123.

(٢٦) تاريخ علم الاجتماع: الرواد والاتجاهات المعاصرة، ص ٤٤٩ ـ ٥٠٠ .

(٢٧) Heath, Anthony, "Economic Theory and Sociology: ACritique of P.M. Blau's Exchang and Power in Social Life" Sociology, 2, (September) 1968, pp, 273-92.

(٢٨) النظريات الاجتماعية، ص ٢٢٥ .

(٢٩) البنائية الوظيفية Structural Functionalism اتجاه نظري في علم الاجتماع ينظر إلى المجتمع على اعتبار أنه نسق يتألف من عدد من الأجزاء المترابطة. ويهتم بدراسة العلاقة بين مختلف هذه الأجزاء وبين المجتمع ككل. وينظر هذا الاتجاه إلى المجتمع على اعتبار أنه شبكة منظمة من الجماعات المتعاونة التي تتجه نحو الاستقرار، وتتفق حول القيم المرتبطة بالأهداف ووسائل تحقيقها. ومن بين العلماء الذين ينتمون إلى هذا الاتجاه «تولكوت بارسونز» T. Parsons و«روبرت ميرتون» R.Merton.

Horton, P.B & Hunt, C.W, Sociology, New York: McGraw-Hill Book Co, 1980, P.17.

(٣٠) Skidmore, W. Op. Cit. p.96.

(٣١) Turner, J, H. OP, Cit, p.269.

(٣٢) Mills, C. Wright, **The Sociological Imaginations** London: Oxford Univeristy Press, 1969, pp, 32-33.

(٣٣) Poloma, M.M. OP, Cit, p.61.

(٣٤) Blau, Peter, M. "Parameters of Social Stucture", in Peter M. Blau (ed.) Approaches to the Study of Social Structure, New York: The Free Press, 1975, P.221.

(٣٥) Poloma, M.M. OP. Cit, P.61.

(٣٦) محمد عاطف غيث: **الموقف النظري في علم الاجتماع**، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٠، ص١١٤ .

(٣٧) نظريات الصراع Conflut theories من النظريات الرئيسية في علم الاجتماع، وتنظر هذه النظريات إلى المجتمع على اعتبار أنه حالة مستمرة من الصراع بين الجماعات والطبقات، ويتجه نحو التوتر والتغير الاجتماعي. وترجع الجذور الفكرية لهذه النظريات إلى آراء «كارله ماركس» K.Marx ويمثل هذه النظريات حديثا «رايت ميلز» C.W right Mills و«رالف دارندورف» R.Dahrendorf و«لويس كوزر» L.ACoser.

انظر:

(٣٨) Turner, J.H.OP. Cit., p. 116-154.
Coser, L.A., Op. Cit., P.123.

(٣٩) التفاعلية الرمزية Symbolic interactionism، نظرية سوسيولوجية تهتم بدراسة التفاعل بين الأشخاص والجماعات، مع التركيز على دراسة اتجاهات الأشخاص والمعاني التي يعطيها الناس لسلوكهم وسلوك الآخرين. وتهتم هذه النظرية بدراسة العمليات الاجتماعية أكثر من اهتمامها بدراسة البناء الاجتماعي. كما تذهب هذه النظرية إلى أن الإنسان يقوم بصياغة وتشكيل الواقع الذي يعيش فيه من خلال عملية التفاعل الاجتماعي، وعن طريقة استخدام الرموز مثل اللغة، ومن أبرز ممثلي هذه النظرية «جورج هربرت ميد» G.H.Mead و«هربرت بومر» H.Blumer.

انظر: Martindale, Don **Nature and Types of Sociological Theory** London: Routtedge & Kegan Pgan Paul, 1976, P. 339.
Meltzer, B. et al, **Symbolic Interactionism,** London: Routledg & Kegan Paul, 1975, P. 54.

(٤٠) قام «هارولد جار فنكل» Harold Garfinkel بصياغة مصطلح منهجية الجماعة أو المنهجية الشعوبية Ethnomethodology عام ١٩٦٧، ليشير إلى نظرية شعبية تعني بدراسة المناهج أو طرق الناس في التعامل مع المشكلات الاجتماعية أثناء تفاعلهم في مواقف الحياة اليومية. وقد قام «جار فنكل» بتعريف مصطلح (الاثنوميثودولوجي) على أنه يشير إلى دراسة المعاني التي يعطيها الناس لكلماتهم وأنماط سلوكهم، ووصف كيفية قيام أعضاء المجتمع بصياغة المفاهيم المرتبطة بمواقف التفاعل أثناء الحياة اليومية، وكيفية تشكيلهم للحقيقة الاجتماعية، ويذهب «ولاس» Wallace إلى أنه يمكن اعتبار المنظور الاثنوميثودولوجي بمثابة أحد الاتجاهات المعاصرة للفاعلية الرمزية.

انظر: Garfinkel, Harold, **Studies in Ethnomethodology** , New Jersey: Englewood Cliffs, Prentice-hall, 1967, P.11.
Wallace, Walter I. (ed.), Sociological Theory, Chicago: Aldine, 1969, P, 35.

(٤١) تاريخ علم الاجتماع: الرواد والاتجاهات المعاصرة،ص ٥٠ .

(٤٢) Turner, J.H. OP. Cit, p.242.

(٤٣) Skidmore, W.,OP. Cit, p.91.

(٤٤) Turner, J.H. OP.Cit., P. 197

(٤٥) Ekeh, Peter P., Social Exchange Theory : The Two Traditions, Cambridge, Mass : Harvard University Press, 1974, P. 180.

(٤٦) Turk, H., & Simpson (eds.), Institutions and Social Exchange, Indianapolis : Bobbs - Merrill, 1971, P. 373.

(٤٧) Blou, P.M., OP. Cit., P. 193.

(٤٨) النظرية في علم الاجتماع، ص ٦٠ - ٧٣ .

(٤٩) Poloma, M.M., OP. Cit., P. 61.

(٥٠) تاريخ علم الاجتماع: الرواد والاتجاهات المعاصرة، ص ٥٠٤ .

(٥١) Poloma, M.M., OP. Cit., P. 62.

(٥٢) Turner, J.H., OP. Cit., P. 242.

(٥٣) Poloma, M.M., OP. Cit., P. 61.

(٥٤) Martindal, D., OP. Cit., P. 432.

(٥٥) Timasheff, N.S. & Theodorson, G.A., OP. Cit., P. 349.

(٥٦) Bierstedt, Robert, "Critique of Blau's Exchange and Power in Social Life", American Sociological Review, 30 (October) 1965, PP. 789-790.

(٥٧) تاريخ علم الاجتماع: الرواد والاتجاهات المعاصرة، ص ٥٠٤ .

(٥٨) Timasheff, N.S. & Theodorson, G.A., OP. Cit., P. 348.

(٥٩) Cohen, Percy, Modern Social Theory, New York : Basic Books, 1968, PP. 123-124.

(٦٠) Timasheff, N.S. & Theodorson, G.A., OP. Cit., P. 349.

(٦١) Turner, J.H., OP. Cit., P. 269.

(٦٢) Poloma, M.M., OP. Cit., P. 62.

* * *